تاريخ علم

ميشال غراس

ترجمة : مصطفى الغيثي

شهدت نهاية القرن 9 ق.م إضاءة تتمثل في تأسيس مدينة قرطاج، ومن هذا المنطلق، ستتسارع أحداث التاريخ : أصبح العالم الاغريقي بعد سنة 776 ق.م يعيش على إيقاع الألعاب الأولمبية التي كانت تجرى في كل أربع سنوات بأولمبيا Olympia ، أما النصف الثاني من القرن 8 ق.م، بدأت تشهد هجرة استعمارية إغريقية على سواحل إيطاليا الجنوبية وصقيلية. أما القرن 7 ق.م فيؤرخ لأكبر لحظة في البحر المتوسطي الفينيقي ومن خلاله تمت مصاهرة الشرق بالغرب ، ونتيجة لهذا التلاحق كانت تعيش أهم الشعوب بالغرب المتوسطي وهم الإتروسكيون ، السارد، والإيبيريون حيث تأثروا بالمساهمات الحضارية الفينيقية .

بعد ستة مائة عام قبل الميلاد ، عرفت العشائر الفينيقية القديمة تهديدات بعد صعود قرطاج. لهذا أصبح البحر المتوسط في الحقبة العريقة يعرف انقساما تاركا المجال لظهور عالم جديد للبونيين Les puniques في الغرب في مواجهة مع روما ، بينما في الشرق بدأت فينيقيا القديمة تخضع لمراقبة الفرس ، وهذا يشكل بداية تاريخ جديد ، وجعلناه نهاية لهذا الكتاب.

تاريخ علم

"بوشارBochart هو بين أيادي كل العلماء والجهلاء لا يستحقون بتاتا أن يقرؤونه"، هذه قولة سجلها بقوة عالم من القرن 18 بعد مرور مائة عام على صدور كتاب Géographia sacra سنة 1646 لمؤلفه Samuel Bochart (1599-1667) وهو من مدينة روان Rouen وتلميذ لتوماس دمبتر Thomas Dempster (مؤسس علم الدراسات الإتروسكية الحديثة)، حيث قدم بوشار Bochartأول عرض متناسق حول اللغة والمستعمرات الفينيقية. كان بوشار مشهورا في وقته ويتقاسم مع ديكارت شرف الامتياز عندما استدعتهما الملكة كريستين Christine إلى ستوكهولم. إذا كانت كتابات بوشار التاريخية تقادمت مع الزمن مقارنة مع كتاب "ديكارت "Discours de la méthode، يرجع له الفضل في إخراج العالم الفينيقي من وسط الميثولوجيين هواة الحكايات، وبفضل أعماله أعاد إشعاع التاريخ الفينيقي إلى علم التاريخ. هذا المسار سيستمر من ذلك الوقت وما زال متواصلا إلى الآن، رغم أن هذا المسار كان متعرجا بعدة خطوات سريعة، ومفاجئة، ولكن صاحبتها وقفات من حين لآخر وفي بعض الأحيان نشهد رجوعا إلى الوراء.

كان بوشار يمثل لوحده القرن الثامن عشر. غير أن كتابه " النقد التاريخي للعهد القديم " أثر بشكل عميق في القرن اللاحق، وهو الكتاب الذي يسجل ميلاد تفسير الكتاب المقدس وتم نشره سنة 1685 من قبل الخطيب الديني ريتشارد سميون Richard Simon. لقد دخلنا عصر الأنوار والذي كان هو أيضا عصر " المفتشين والمحققين لحسابات علم التاريخ"، و"هو شعب العلماء [....] الذي قام بأعمال صعبة تتمثل في نشر الوثائق وتفكيك النصوص و التنقيب عن الأحجار" (P.Hazard).

كان علماء هذا القرن يبحثون عن الفهم والتفسير، بحيث لم يعد يهمهم الاكتفاء بالرسومات الحكائية. لهذا لا نتعجب إذا رأينا كامبرلان Richard Cumberland وهو قس مدينة بيتيربوروPeterborough شمال كمبريدج Cambridge يكرس حياته لدراسة مقتطفات من كتاب "سنشوعاطون" sanchuniathon ونشره سنة 1720. إن "سنشوعاطون "هذا كان كاتبا فينقيا من بيروت وحسب مترجمه إلى الإغريقية وهو فيلون Philon من بيبلوس Byblos يقول أن "سنشوعاطون " عاش قبل حرب طروادة.

كان الإقبال على هذا الكتاب كبيرا نظرا لأهميته كمصدر للتاريخ الفينيقي مما شكل معه أول معركة مثالية بين علماء القرن الثامن عشر بالحجج حول ما إذا كانت هناك مصادر فينيقية وما قيمتها. كان هذا في وقت سابق وهو الذي يؤطر البحث العلمي حاليا، إذ ليس لدينا نصوصا أدبية فينيقية. إن الفينيقيين لم يتكلموا عن أنفسهم وكانت نظرتنا إليهم غير دقيقة تعتمد فقط على ما كتبه عنهم الإغريق والرومان لولا ظهور الأركيولوجيا والنقائش التي تتحدث عن التاريخ الفينيقي.

إن الحجر حفظ لنا المعلومات أكثر من البرديات والورق، أما النقائش فهي المصدر الأساس الذي لن ينساه القرن 18. كان القس بارتيليمي L'Abbé Barthélemy) (1716-1795) وهو من جنوب فرنسا، تعلم الإغريقية والعبرية بمرسيليا قبل أن يصبح مديرا لقصر الملك مكلف بالأوسمة، حيث ألقى في يوم 12 أبريل 1788 أمام أكاديمية النقائش والفنون الأدبية محاضرة تحت عنوان "تأملات في المآثر الفينيقية وأبجديتها "، واعتمد في منطلق بحثه على نقيشة مزدوجة اللغة اكتشفت بمالطا.

دخل برتيليم الأكاديمية الفرنسية سنة 1789 وذلك بعد نشره مؤلفا شهيرا تحت عنوان " سفر الشاب أناكارسيس Anacharsis إلى اليونان"، وتم تكريمه بعد موته عندما منحه

الألماني كزينيوس Gesenius الصواب في قراءة بعض النقائش الابيبغرافية. ثم قام كزينيوس سنة 1837 في مدينة " لا يبزيك leipzig" بنشر مجلدين باللاتينية وتم تخصيصهما لـ "البنايات التي تحمل الكتابة واللغة الفينيقية". هذا الباحث كان مختصا في العبرية التوراتية حيث يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لدراسة النقائش الفينيقية، أيضا وبفضله أصبح للعلماء حاليا قواعد النحو الفينيقي، أي قاعدة عمل لقراءة النقائش المكتوبة.

بعد ثلاثين سنة قام إرنست رينان Ernest Renan بإطلاق مشروع جامع النقائش السامية (Corpus Inscriptionum Semiticarum) وذلك سنة 1867، غير أنه لم يتم إخراج المجلد الأول إلا سنة 1881 وهذا يدل على حرصه أن يكون جمع النقائش ممنهجا، كما جسدت هذه الطريقة جوابا فرنسيا للمشاريع الألمانية الكبرى التي قادت أكاديمية برلين إلى إنجاز جامع النقائش الإغريقية (Corpus Inscriptionum Graecarum) وذلك منذ سنة 1828، ثم من بعده خرج إلى الوجود المجلد الأول من جامع النقائش اللآتينيةِ (CorpusIinscriptionum Latinarum) والذي نشره مومسن Mommsen سنة 1863.

في هذه الفترة أصبح التفكير التاريخي ناضجا على قدر كبير من الأهمية. في هذا الاتجاه نشر فاركاس ما شوكا M.Vargas-Machuca (1733-1795) وفي غضون عشر سنوات بمدينة نابل كتابين من 500 صفحة تقريبا، وكلاهما يقدمان أدلة تثبت على أن الفينيقيين هم أقدم الشعوب في جميع منطقة نابل Naples من كايت Gaéte إلى كابري Capri، وأن الأوبيين Eubéens لم يستقروا في هذه الناحية إلا في وقت متأخر. كما نجد هذه المقاربة عند فليب شامبولت[1] Champolt Philippe الذي وصف الأوديسيا بأنها " شعر وطني لمستعمرة إسكيا Ischia نصفها فينيقية ونصفها إغريقية بفعل اندماج الفياكيين Phéaciens والكلكدنيين Chalicidiens في جزيرة إسكيا. بحيث أنه بمجرد تأويل خاطئ لنصوص (إسكيا

Eschia جزيرة الفياكيين) قد يفضي بطريقة استثنائية إلى الحقيقة التاريخية التي نعرفها لفترة قصيرة بفضل الحفريات التي تحققت في جزيرة إسكيا.

مع نهاية القرن 18، نجد مع ذلك نصا متزنا ونقديا لصاحبه أرنولد هيرين Arnold Heren (1760 -1842) الذي كان أستاذا في التاريخ بجامعة كوتنكن Gottingen وغير مقتنع بما قرأ عن تاريخ قرطاج، حيث قرر أن يرجع الأمور إلى نصابها، وذلك ببداية قراءة المؤرخ بوليبيوس Polybius الذي كتب باللغة الاغريقية والذي كان إلى جانب القائد الروماني سبيون الايميلي Scipion Emilien عندما انهزمت قرطاج أمام روما سنة 146 ق.م. هذه العملية شكلت انطلاق أول عمل من خمس مجلدات ستصدر للمؤلف هيرين، وخصصها للسياسة والتجارة لشعوب التاريخ القديم، وكانت الطبعة الأولى ظهرت ما بين 1793و1796، وكم كانت المفاجأة كبيرة عندما ترك هيرين حيزا ملحوظا في عمله للفينيقيين وبدا هذا المؤرخ هيرين Heren ملما بالمصادر الكلاسيكية ويتقن جيدا وبدراية فائقة استعمال الكتاب المقدس (منها شكاية مدينة صور في حزقيال).

عندما أصبحت الحصيلة المحترمة لهيرين وهو في طبعته الرابعة من إنجازه العلمي، نجد موفير Movers françois-charles وهو أستاذ مختص في تأويل التوراة بكلية اللاهوت الكاثوليكية ببرسلو Breslau ينشر سنة 1841 الجزء الأول (مخصص للدين) من عمله الضخم للفينيقيين، ثم سيتبعه بثلاث مجلدات تتناول التاريخ السياسي، تطور المستعمرات، وفي الأخير التجارة والملاحة. أيضا نجد في أعماله نظرة شمولية حول حركة التوسع في البحر الأبيض المتوسط، لكن كما هو الشأن عند بوشار Bochart، كل أعمال موفير Movers ركزت على أصل الكلمات المشكوك فيها، لهذا نجد خصومه يرون فيه هوسا بالفينيقيين وأنه يراهم في كل مكان.

بما أن المواقعية أو الطوبونيمية هي علم يجب التعامل معه بحذر إلى يومنا هذا، يجوز القول أن علم الآثار أثبت الحضور الفينيقي حول محيط البحر الأبيض المتوسط حتى فيما كتبه "المهووسين بالفينيقيين " (الذين لا يجب تجاهل مبالغاتهم).

إن النظرة التي تقول إن البحر الأبيض المتوسط قد تحضر بالتدريج من الشرق، والتي نجدها عند بوشارت وهرين Heren وموفير[2] Movers قد تعرضت لانتقادات شديدة، حيث سماها كروسِ Croce "التطرف في الإسطوريوغرافيا الوطنية " وذلك سنة 1840. لهذا حاول Mazzoldi Angelo (1864-1799) أن يقدم الدليل على انتشار الحضارة الايطالية *incivilimento* بين كل الأمم الأسيوية الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، وحسب رأيه أن التاريخ لا ينبع إلا من إيطاليا. مما أدى به إلى جهل الاستيطان الاغريقي في إغريقيا الكبرى و صقيلية (وجعل من أومبيدوكل Empédocle وأرشيميد Archimède انتصارات إيطالية")، ويضيف بأن أصول الإتروسكين Les Etrusques هم من الليديين Lydiennes. حول هذه النقطة الأخيرة، إن التاريخ قد أنصفه، أما فرضيته كانت تستهدف أساسا إقصاء " شساعة المحطات الفينيقية " لفائدة " إمبراطورية بحرية قديمة للإيطاليين " وهي نظرة قومية للتجارة الإتروسكية العريقة. كان عمق خطابه حول مدينة صور كونها مدينة أسسها التيريزيون Tyrrhéniens/الإتروسكيون. هذه الجرأة والمبالغ فيها لا نجدها إلا عند " Risorgimente" و " Ventenrio" الفاشي[3].

يعلن مازولدي Mazzoldi أن الجدية التي ميزت مقالات هيرين Heren والفريدة من نوعها في القرن 19 قد افتقدت و انتهت. في خضم هذا النقاش بدأت الأبحاث الفينيقية تدخل أكبر سجال في التاريخ الإسطوريوغرافي.

في سنة 1847 اندهش سكان باريس وهم يرون على رصيف متحف اللوفر " ثيران بشرية الرأس" Taureaux androcéphales جلبها "بوتا" Botta عند اكتشافه قصر الملك الأشوري سرجون II في خورسباد بالموصل. هذا الحدث كان بمثابة اكتشاف الشرق بأكمله بعدما كان الاقتصار فقط على مصر بفضل حملة بونابرت وشامبوليون.

كانت أكبر الأبحاث الأولية في حوض البحر المتوسط تجرى في قبرص. إن هذه الجزيرة شهدت يوم 25 ديسمبر 1865 زيارة للقنصل الأمريكي وهو قنصل ليس كباقي القناصلة الآخرين، إسمه لويس بالما دوسسنولا Louis palma De Cesnola وهو من منطقة بييمونتي Piémontais، ازداد سنة 1832 و حارب في "نوفارNovar" سنة 1849 مع جيش سردينيا قبل أن يهاجر إلى أمريكا. عندما رجع إلى قبرص كانت الجزيرة ما زالت تلك الحديقة الكبرى منذ العصر الوسيط تقوم فيها تجارب مختلف النباتات المستوردة من الفرس وبلاد العرب والهند ومصر قبل أن يتم إرسالها إلى باقي أوروبا. عبر هذه التجارب النباتية، نشأ شغف بعلم الآثار في السنوات الأخيرة بعدما كانت أولى الحفريات من قبل L. Ross محافظ المتحف القديم البافاري في كتيون Kition سنة 1845، وتبعتها نشاطات في البحث الأثري قام بها الكونت Melchior De Vogue حيث جلب معه إلى متحف اللوفر سنة 1862 مجموعة من التحف القبرصية. أما القنصل De Cesnola لم يكتف ببعض المغامرات الأثرية التي كان يزاولها بمعية الطاقم القنصلي آنذاك، إذ قام بفتح ثلاث آلاف قبر قرب لارناكا Larnaca وعشرة آلاف مقبرة في إيداليون Idalion. في سنة 1873 سيقتني متحف نيويورك آلاف التحف الأثرية من القنصل سيسنولا De Cesnola مقابل 61 آلف دولار[4].

انطلاقا من سنة 1874، غيرت الأبحاث الأثرية التي قام بها شليمان Schlieman قواعد اللعبة على إثر اكتشاف الحضارة المكينية La Civilisation Mycénienne التي شكلت مفاجأة للجميع، والبعض منهم رفض أن تكون هذه الحضارة من عمل الفينيقيين. وهو ما قام به هلبيك[5] W.Helbig ومثله أورسي P.Orsi الذي ظن أنه عثر في حفرياته على شواهد من التجارة الفينيقية في تابسوس Thapsos بصقيلية وهي محطة مكينية. نعرف الآن أن توسع الحضارة المكينية في البحر المتوسط الغربي كان سابقا بعدة قرون على التوسع الفينيقي، ولكن نجد حاليا صعوبة في بعض الحالات في التفريق بين المعطيات الفينيقية والمعطيات المكينية نظرا لتداخل الحضارتين في صقيلية وعلى الساحل في الشرق الأوسط.

ستعرف فرنسا في هذه الفترة التباسا آخر. في سنة 1878 حاول أستاذ العبرية القس بارجيس L'abbé Bargès أن يقدم أدلة على وجود مستعمرات فينيقية في إقليم الميدي[6] Midi بفرنسا على إثر اكتشاف مهم في مارسيليا لنقيشة قرطاجية تقنن كيفية تقديم القرابين ومؤرخة بالقرن الرابع ق.م. (وهي تعرف بتسعيرة مارسيليا " تحت رقم CIS,I, 165)، ولكن لا نعرف بالضبط متى تم ترحيل هذه النقيشة من قرطاج إلى مارسيليا [7]. يصعب الحديث عن التأثيرات الفينيقية – البونية إلى يومنا هذا في بعض أجزاء منطقة الميدي المتوسطي بفرنسا (نموذج لانكدوك Languedoc[8])، لكن يمكن نفي حضور المدن السامية في هذه المنطقة.

إن أول بعثة استكشافية إلى بلاد فينقيا قام بها رينان كونه قدم أبحاث في اللغات السامية، لهذا عينه نابليون III على رأس هذه البعثة من خريف 1860 إلى خريف 1861[9]. لقد خلفت هذه البعثة صدى على الصعيد السياسي والنفسي أكثر منه على الصعيد العلمي ولا يمكن مقارنتها مع الأعمال الأثرية في القرن 19. أكثر من ذلك، كانت الأعمال

الإبيغرافية التي قام بها كانو Clermont –Ganneau (1846-1923) ذات أهمية أكبر، كما لا ننسى دراسته عن الصورة الفينيقية[10] وهي محاولة في قراءة الصورة كموجه للأفكار التي تبحث في تقييم "ميثولوجيا سمعية وبصرية" وتتمحور حول أصول الدراسات الإيكونولوجية Iconologiques(دراسة الصورة).

بعد مضي سنة على نهاية بعثة رينان Renan، نشر فلوبير Flaubert كتابه "سلامبو*Salammbô*" سنة 1862. إن هذا الروائي ألزم نفسه خمس سنوات في عمل يشبه عزوف الزهاد، بحيث لا يفارقه كتاب بوليبيوس Polybius. تحكي روايته عن فترة متأخرة من التاريخ القرطاجي وهي حرب المرتزقة بعد نهاية الحرب الأولى ضد روما سنة 233-241 ق.م. بفضل كتاب "سلامبو" الذي كان عنوانه في البداية يحمل اسم قرطاج، دخلت الأسطورة الفينيقية إلى المنازل الفرنسية. نجد بالخصوص في هذا الكتاب صورة ساخرة عن شكاية حزقيال على مدينة صور :" آه قرطاج البئيسة ! المدينة المرثية ! لم يعد لك الرجال الأقوياء للدفاع عن نفسك كما كان سابقا وهم يعبرون المحيطات لإنشاء معابد على السواحل ". وصف الروائي فلوبير قرطاج واتخذها كمنشور لتشويه الحضارات المصرية، الإغريقية والبربرية. لقد تم توجيه النقد إليه بعد صدور روايته بخصوص مستوى أوصافه الأركيولوجية، ولكن جوابه كان مسبقا :" إنني أراكم الملاحظات تلو الملاحظات، وكتبا عن كتب [...] ولكي يصل الكتاب إلى الحقيقة يجب أن يكون المرء عارفا بموضوعه إلى أقصى حد، أما بالنسبة لعلم الآثار، فهو ممكن في المستقبل، هذا ما في الأمر، وحتى لا يقال أنني قلت تفاهات وهو ما أريد قوله ".

إن الروائي فلوبير لم يقم باختيار موضوعه بالصدفة. منذ مدة كان الحديث عن علم الآثار القرطاجي وفي سنة 1833، نشر فالب Falbe قنصل الدنمارك بتونس أول خريطة

مفصلة للمدينة القديمة [11]. بعده بسنوات قليلة، يقوم القس "بوركاد" Bourgade مرشد الديرة الأميرية الواقعة على المكان الذي يفترض أن الملك سان لويس قد توفي فيها والواقعة على تل بيرصا Byrsa، بنشر جامع النقائش تحت عنوان "جزة الذهب للغة الفينيقية Toison d'or de la langue phénicienne" سنة 1852.

انطلاقا من سنة 1867، لم يدع النقاش الدائم حول ماضي قرطاج القس الجديد بالجزائر Mgr.Lavigerie بدون مبالاة، حيث عين في مكان تل "سان لويس" رهبانا منهم بالخصوص الأب دولاتر Delattre لدراسة ماضي المدينة. من سنة 1878 إلى وفاته سنة 1932، كان الأب "دولاتر" هو المنقب الرئيسي في قرطاج وبمرور السنين لا يمكن لنا إلا أن نقدم له نقدا قاسيا لعمله العلمي الذي يفتقد إلى الصرامة والمنهجية. وهوما ينطبق أيضا على عمل أورسي P.Orsi في مدينة كالابر Calabre في صقيلية. كما أن بعض أحكام القس لافجري Lavigerie تبدو مؤسفة بالرغم من حدة فكره من خلال هذه الملاحظة التي يقول فيها :"يجب علينا إصلاح آرائنا حول الطبوغرافية القديمة لقرطاج إن لم تكن هي النواة". إن مدينة قرطاج لم يكن تأسيسها فوق التل بل على الساحل وحول الميناء المخصص للتجارة و للسكان الأوائل". أثبتت الأبحاث الجديدة أشياء من هذه الملاحظة.

في سنة 1881 بعد فرض الحماية في تونس، تم التفكير في تأسيس "المدرسة الفرنسية لقرطاج" وهو مشروع أعجب به بالخصوص كامي جوليان Camille Julien مؤرخ بلاد الغال، لكن المشروع لم يتم قبوله من قبل لجنة المؤسسة المكلفة بالملف وبقي الرهبان البيض هم وحدهم يسهرون على مصلحة التاريخ القديم والتي تم إنشائها سنة 1885. تخللت هذه الفترة عدة نقاشات حول الفينيقيين والتي كان يسهر عليها معهد قرطاج انطلاقا من سنة 1894 وتديرها عدة شخصيات منها برتلون Bertholon وكارتون Carton. في الحقيقة، كان التقرير

العلمي الأهم هو من وضعه كوكلر Gaukler مدير المتاحف القديمة الذي قام بحفريات في المقابر بين سنة 1899 و1905[12].

في شبه الجزيرة الإيبرية كان السؤال المطروح دائما هو حول تارتيسوس Tartessos والذي أدخل المؤرخين والأثرين في نقاش حاد بخصوص الإشكالية الفينيقية. و حوالي سنة 1900 اكتسى النقاش عمقا خاصا، إذ سيقترح سيري Siret (1860-1934) وهو مهندس المعادن في مدينة ألميريا، أن البحث عن المعادن كان هو المحرك الأساس للتجارة الفينيقية. لهذا كان الإيبيريون وسكان غرب المتوسط يبادلون القصدير ببيض النعام وعاج فرس النهر. استطاع سيري Siret أن يحدد مرحلتين زمنيتين : الأولى في النصف الثاني من الألف الثاني، و المرحلة الثانية بعد تأسيس قادس. إن الانبهار بالحضارة المصرية حتى ذلك الحين، جعل هذا المهندس يقول أن الفينيقيين كان موطنهم مصر و هم مجرد "طفيليون لم يعرفوا أبدا فنا أصيلا لهم"[13]، وهو حكم سبق أن ردده دو فوكي Melchior de Vogüé. من جانبه وعندما كان باريس P.Paris يبحث لفهم الفن الإيبيري كان يصادف دائما الفينيقيين في طريقه. بديهيا أن الفينيقيين كانوا لا يعتبرون إلا وسائل تأثير بين الشرق، حضارة كريت، الحضارة المكينية، وبين الغرب. لهذا يصعب وضع وتقديرمكانة الفينيقيين في جزيرة إيبريا بالمقارنة مع الإغريق. وجب انتظار شولتن Schulten (1870 - 1960) عندما أراد البحث في مشكل تارتيسوس Tartessos والتوصل إلى نتائج البحث الاسباني أواخر القرن 19. إن الاكتشافات الحديثة على الساحل الأندلسي في سنوات الستينات هي مرتبطة مباشرة بالنقاشات القديمة حيث عثرا لأثريون الألمان على المدينة الفينيقية توسكانوس Toscanos عندما أرادوا دراسة المدينة الاغريقية "ماينا كي" Mainake واقترح Scholten لأول مرة تحديد مكانها بدقة[14].

كان التفكير التاريخي في سردينيا ينبع بدوره من التجارب الأركيولوجية الأولى. لقد زار الرحالة ديلا مرمورا A.Della Marmora المواقع الفينيقية ابتداء من 1830. في الواقع إن المؤسس للأركيولوجيا في سردينيا، هو القس سبانو Spano (1803-1878) الذي استطاع إيقاف نهب مقبرة تاروس Tharros سنة 1851. أما بالنسبة لبايس E.Pais فيرجع له الفضل في تقديم أول حصيلة تاريخية سنة 1881 مصححا ما قدمه موفير Movers وذلك تحت تأثير تاريخ جديد لكتاب نشره ملتزر[15] Meltzer حول قرطاج. بدأنا نلمس تقدما ملحوظا في التفكير التاريخي بخصوص تواريخ فينقيا التي نشرها بيتشمان Pietschman وراولسون Rawlison سنة 1889[16] وكذلك في ما يخص أول دراسة كبرى حول الفنيقين في صقيلية،والتي أخذت مكانها ضمن كتاب عام بعنوان " تاريخ صقلية " وكتبها فريمان Freman مؤرخ الفتح النورماندي الذي يقول عنه المؤرخ مومكليانو A.Momigliano "جرماني وآري حتى النخاع"، كما جاب Freman أنحاء جزيرة صقيلية مع صهره إيفانس Evans الذي سيكون لاحقا المنقب الأثري لقصر كنوسوس[17] في (جزيرة كريت).

هذا الانفصال التدريجي بالنسبة لموفر Movers يوحي بالقطيعة المفاجئة لسنوات 1893-1894، وفي إحدى ملحقات كتاب تاريخ صقيلية وبلاد الإغريق الكبرى نجد عنوانا لبايس Pais يقول فيه "العناصر السامية المفترضة في صقيلية[18]". أما بلوخ Beloch ذهب إلى حد نفي الملاحات الفينيقية في بحر إيجة في القرن السابع ق.م، لكن يعود له الفضل في التمييز بين المساهمة المكينية والمساهمة الفينيقية[19]. نجد ريناخ Salomon Reinach في مقاله له "سراب الشرق " استخدم فقرة للتذكير " مطالبا حقوق أوربا ضد مزاعم آسيا "، لكن هذه الصيغة القاسية تمر وتبدو كأنها صيغة بيان رغم أنها فقط محاولة لإعادة التوازن يندمج فيها تحليل من نوع ثقافي يبشر بمستقبل جيد :"علينا تمثل مسيرة الحضارة على نموذج

الجيش [...] تشبه إلى حد ما البحر هاجما على الساحل [...] وبتموجات متتابعة بين أخذ ورد وباستمرار تعطي ميلاد عدد كبير من التيارات[20]" يا له من تفسير رائع لظاهرة المثاقفة؟

هكذا كان يظهر أن كل تأثير شرقي ليس مرادفا للوجود الفينيقي، ولا يمكننا الاعتماد على مقاربات إيتيمولوجية وطبونيمية فضفاضة، وأن الباحثين بوكارت وموفير ليسوا مصادر قديمة، وعلينا بالتالي أخذ المسافة حيالهم. عجبا وضد التيار، نجد عملا لصاحبه بيرار V. Bérard (1864-1931) الذي كان إلى حدود سنة 1894 يدعم أطروحة يكشف من خلالها عن ملامح المشارقة وحتى الفينيقيين في بعض من عبادات إقليم أركاديا Arcadie بالاغريق. تعتبر نتائجه غير مقبولة حاليا، ولكن هذه المحاولة ستحدد مسيرة بيرار العلمية عندما عاين أمامه المشاهد الطبيعية كما وصفتها الأوديسيا ويؤيد بذلك فكرة البحر المتوسط الفينيقي والتي نستشفها من بعض الفقرات الهوميرية[21]. إن انطباعات "بيرار Bérard لا يمكن أن تفضي علميا إلى شيء ملموس رغم معرفته الفائقة بالنصوص، و يبقى عمله محببا على المستوى الأدبي، ولكن تميز بعفوية وهي اعتقاده بإمكان اتباع منهجية بوشار وملاحظاته الطبونيمية بدون إخضاعها للنصوص الإيبغرافية والأثرية. إذا عقدنا مقارنة بين مساهمة بيرار وبين معاصره ستيفان كزيل Stéphane Gsell (1854-1932)، فإن التميز يعود لهذا الأخير. قام كزيل بتسيير حفريات إتروسكية في فولستي سنة 1889، ثم ذهب إلى الجزائر، ولكنه سنة 1910 سيؤسس لمشروعه الخالد بكتابة "التاريخ القديم لشمال أفريقيا"، وهو مكون من ثمانية أجزاء ظهرت ما بين 1913و1928، كما أن اللوحة الخاصة بالحضارة القرطاجية التي رسمها كزيل ما زالت ليومنا هذا تحتفظ بقيمتها وهي نظرية المؤرخ حسب تعبير شارل بيكار :" لم يكتف فقط بدفتر الحفريات ". عندما نقرأ

عمل كزيل ونقارنه مع المحاولة التركيبية للفينيقيين التي نشرها أتران Autrain سنة 1920، يتولد لدينا انطباعا مؤلما حيال هذا الأخير، ولا نفهم كتابه دون أن نتذكر كيف كانت عليه المناظرات ضد السامية في ذلك الوقت، خاصة عندما أطلق دريمون Drumont سخريته سنة 1886[22] مقارنا اليهودي بأنه وريث الفينيقي والقرطاجي. بالنسبة لأوتران Autran إن الساميين الذين هم الفينيقيون ليسوا هم من ساهموا بشكل كبير في نشر الحضارات المتوسطية، ويستمر في قوله،إن فينيقيا السامية لم تكن سوى "ترقيعة" Replâtrage لحقبة قديمة، أما الفينيقيون "الحقيقيون " فيجب أن يكون مجيئهم من آسيا الصغرى، حيث نجد "رجالا لهم رشاقة جسم، ذووا بشرة بيضاء، جباههم عالية، وعيونهم براقة ". هذا ما نقرأه في كتاب أوتران البئيس وهو حافل بالأخطاء من أوله إلى آخره.

خلال هذه السنوات بدأ يلوح أفق جديد في البحث الأركيولوجي. بعد الحصيلة التي قدمها مايرMayr حول الحقيقة المالطية[23] سنة 1909، ظهرت إلى الوجود مقبرة إيبيزاIbiza ولكن فقط من خلال مستويات أثرية متأخرة [24].

أما العلامة الحقيقية للتجديد فهي التي ستبدأ مع جوزيف فتاكرJoseph Whitacher (1850-1936) الذي كان هاويا ومعجبا بالآثار، وهو في نفس الوقت خبير في علم دراسة الطيور. ينتمي إلى عائلة بريطانية استقرت بصقلية(أبوه هو أحد المبتكرين لـ " مرسلا Marsala). بدأ يبرز إلى الوجود وبطريقة منهجية المحطة الفينيقية لموتيي Motyè عند الرأس الغربي لصقيلية. هذا الموقع أصبح الآن وبفضل التنقيبات الإيطالية الجديدة، أحد الركائز لمعرفتنا بالعالم الفينيقي الغربي[25]. عند نهاية سنة 1921، وباكتشاف طوفيط Tophet قرطاج، بدأت مرحلة جديدة من علم الآثار القرطاجي. في نفس السنة تم نشر كنز "لا

أليسدا La Aliseda " وهو مصدر وثائقي ذو أهمية كبيرة في دراسة الظاهرة الاستشراقية في إسبانيا.

هكذا بدأ علم الآثار يواصل تقدمه بينما ظل علم التاريخ متوقفا. في فترة ما، إذا ما وضعنا جانبا حصيلة كونتنو Contenau وإيسفلد Eissfeld، فإن المؤرخين سيصمتون نهائيا بفعل المجهودات العلمية لكزيل Gsell ومتاهات أوتران Autran. كان يجب انتظار أولبريات Albright[26] لفتح مرحلة جديدة من النقاش الذي ما زال مستمرا إلى يومنا هذا.

لقد تتبعنا من جانبنا النصيحة التي أعطاها مازارينو سنة (1916-1987) ومفادها أن لا نسأل عما إذا كان الفينيقيون قد مارسوا هيمنتهم على البحار، ولكن بتجنب الأسئلة الغامضة ومحاولة التمكن بوضوح وبفكر -تدريجي من معرفة العلاقات التي أقامها الفينيقيون مع العالم المتوسطي[27].

إن الأركيولوجيا الفينيقية أخذت انطلاقة جديدة في سنوات الخمسينات والستينيات : الأبحاث في كتيون Kition (صقيلية)، في موكادورMogador (المغرب)، في موتيي (Motyè صقيلية)، في مون سيراي MontSirai(سردينيا)، في ألمونيكارAlmunecar وتوسكانوسToscanos (الأندلس)، هي بالنسبة لنا أبحاث أمدتنا وللمرة الأولى بمعلومات في غاية الأهمية حول الأماكن الفينيقية العريقة. إن التنقيبات في إسبانيا ساهمت بشكل ملحوظ في معرفة مزيد من المواقع الفينيقية المعروفة : الاكتشافات في الأندلس هي أهم حصيلة في السنوات الثلاثين الأخيرة باعتبارها مكتسبات مكنتنا من التعرف بوضوح على منطقة فينيقية تشبه لبنان وسردينيا. من جهة أخرى، استطاعت بعثة ألمانية سنة 1987 وبعد قرن من الحفريات القرطاجية أن تتوصل إلى ملاحظات حول السكن في بداية قرطاج، وننتظر ستراتيغرافيا فينيقية لقرطاج بعد مدينة صور التي نشرت مؤخرا. وموازاة

مع ذلك، فإن التنقيبات الايطالية حاليا في موتيي Motyè وتاروس Tharsos ستمكننا أكثر من معرفة ذلك السؤال النوعي حول الأركيولوجيا الفينيقية – البونية، وأيضا من فهم جيد التنقيبات الفرنسية القديمة في موقع الطوفيط Tophet في قرطاج.

هناك كثير من الأبحاث ما زالت مستمرة إلى الآن، ومازالت الحاجة ماسة إلى أعمال يتعين القيام بها. نتمنى أن تستأنف الحفريات في المقابر الجماعية التي تم القيام بها في بتاكوس Pithécouses(في جزيرة إسكيا Ischia) وتريمار Trayamar في الأندلس، ستمكن من القيام بدراسات في الايديولوجيا الجنائزية وبتحاليل أنثروبولوجية فزيائية. نترقب أبحاثا في مجال هندسة السكن موازاة مع ما تحقق في العالم الاغريقي، حتى نفهم ميلاد وكيفية بناء السكن عند الفينيقيين : لا نتوفر لحد الآن إلا على معطيات ضعيفة، أغلبها مستمدة من الأبحاث الإسبانية والألمانية في الأندلس.

إن الحاجة إلى علم الطبقات والأبحاث الأركيولوجية تبدو ملحة، وبالمثل كذلك إلى مجموعات متجانسة بنيويا، بحيث أن الأركيولوجيا الفينيقية ما زالت أركيولوجيا الشيء. هذا الشيء هو في الحقيقة ليس بالتافه في الوقت الذي يندمج في سلسلة، ونتوصل إلى ترتيبات حسب الشكل، المادة والزخرفة. لقد كان هذا القطاع من بين القطاعات الأقل إهمالا في الماضي القريب، ونتوفر الآن على دراسات مفيدة خاصة الايطالية في ما يتعلق بالمجوهرات، والنصب التذكارية (جزئيا) والخزفيات، ولكن هذه الأعمال انكبت أساسا على المكتشفات البونية الأكثر حضورا في المتاحف.

إن علم الإبيغرافيا هو علم أساسي لفهم العالم الفينيقي. كما تعتبر دراسة النقائش الوسيلة الوحيدة والممكنة لفهم البنيات العقلية والسياسية المكونة لهذه الحضارة. في الحقيقة لا نملك في الحقبة العريقة غذا نصوصا محدودة ومكررة، وغالبا لا نتوفر إلا على

حروف على قطعة خزف. إنه بالإمكان تحقيق تقدم منتظم في هذا النطاق شريطة أن لا نجازف باقتراح و بأي ثمن تأويلات نهائية: نموذج نقيشة " نورا" (Nora) في سردينيا والمعروفة منذ سنة1773 والتي اجتهد فيها العلماء منذ مدة لهي دليل في هذا الاتجاه. إن إنشاء سلسلة من هذا القبيل ستساعدنا على إلقاء مزيد من الأضواء : المكتشفات التي تحمل نقائش في الشرق والمستوردة في الغرب ليست لها نفس المعنى التاريخي مع نظيرتها المكتسبة في موقع غربي حتى ولو كانت تستعمل نفس اللغة.

إن المشكل الرئيس لفهم العالم الفينيقي يكمن في الكرونولوجيا، لهذا فإن الأركيولوجيا التي تساعدنا في هذا المجال، تحتم علينا اللجوء إلى الخزف الإغريقي الذي يؤرخ بدقة وبفارق زمني بترتيب ربع قرن، وهو أمر ملحوظ بالنسبة للعصر الذي يهمنا. إن الأركيولوجيا الفنيقية (وحتى البونية) تفتقد إلى وسيلة فعالة، بحيث أن الخزف الفينيقي كان مهملا منذ فترة طويلة ويصعب دراسته عندما لا يتوفر فيها التطور الفني الذي يميز الخزف الإغريقي. لهذا وفي كثير من الحالات، بفضل الواردات الإغريقية المكتشفة في الوسط الفينيقي يمكننا التوصل إلى تواريخ دقيقة.

بعد مرور ثلاثة قرون على الباحث بوشار، استطاع العالم الفينيقي أن يجد له أدوات ملائمة للبحث المعاصر. رغم ذلك مازلنا غير قادرين على تقديم تحقيب دقيق للتاريخ الفينيقي، ولكن يبدو من الممكن عزل مسافة زمنية تؤدي بنا من القرن 11 ق.م. إلى ق.6 ق.م وبهذا سنكون قد أقصينا المعطيات البونية [28].

[1] -M.VARGAS-MACHUCA, Dell'antiche colonie venute in Napoli ed i primi si furono i fenici, Naples, 1764 ; Dell' antiche colonie venute in Napoli ed i secondi furono gli Euboici, Naples, 1773 ; Ph.CHAMPAULT, Phéniciens et Grecs en Italie d'après l'Odyssée. Etude géographique, historique et sociale par une méthode nouvelle, Paris, 1906.

[2]- نجد هذه النظرة ما زالت متداولة في كتاب

F.de.ROUGEMONT, LÂge du Bronze ou les Sémites en Occident, Paris, 1866.

[3]- A.MAZZOLDI, Delle origine italiche e delle diffusione dell'incivillimento italiano all'Egitto,alla Grecia e a tutte le nazione asiatiche, Milan, 1840.

[4]- J.L.MYERS, Handbook of the Cesnola collection of Antiquities from Cyprus in the Metropolitain Museum, New York, 1914.

[5]- W.HELBIG, l'Epopée homérique, trad. française, Paris, 1894.

[6]- J.BARGES, Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes établies sur le littoral de la Celto-Ligurie, Paris, 1878.

[7]- نجد أحسن دراسة عن ظروف الاكتشاف هي لصاحبها : CIS)بالإضافة إلى جامع النقائش السامية (

P.CASTANIER, les Origines de Marseille et de la Provence, Paris, 1896.

توجد نقيشة "التسعيرة" في متحف بوريلي بمرسيليا

[8]- نقتصر على آخر عمل: F.BENOIT et de J.J JULLY إضافة إلى الأعمال التي قام بها كل من

O.ARTEAGA-J.PADRO-E.SANMARTI, « la expancion fenicia por las costas de Cataluna y del Langduedoc », *Aula Orientalis*, IV, 1986, pp.303-314. ولكن الملف الأثري ما زال يطرح بعض المشاكل.

[9]- E.RENAN, Mission de Phénicie, Paris, 1864.

[10]- Ch.CLERMONT-GANNEAU, l'imagerie phénicienne et la mythologie iconologique chez les Grecs, Paris, 1880 ;

هذه الدراسة اقتصرت على تحليل قدح فينيقي اكتشف سنة 1876 في مقبرة باليسترينا في اللاتيوم

[11]- C.T.FALBE, Recherches sur l'emplacement de Carthage suivies de renseignements sur plusieurs inscriptions puniques inédites, Paris, 1833.

[12]- P.GAUCKLER, Nécropoles puniques de Carthage, Paris, 1915(دفتر حفريات نشر بعد وفاة العالم الأثري)

[13]- L.SIRET, Questions de chronologie et d'ethnologie ibériques, Paris, 1913 نجد فيها دراسات قديمة)(

[14] -P.PARIS, Essai sur l'art et l'industrie de l'Espagne primitive, Paris, 1904 ; A.SCHULTEN, Tartessos, Hambourg, 1921.

[15]- O.MELTZER, Geschichte der Karthager, Berlin, 1879.

[16]- R.PIETSCHMANN, Geschichte der Phönizier, Berlin, 1889; G.RAWLINSON, History of Phoenicia, Londre, 1889.

[17]-E. A.FREEMAN, « the Phoenician Settlements in Sicily », *The History of Sicily from the Earliest Times, I*, Oxford, 1891, pp.221-305.

[18]- E.PAIS, Storia della Sicillia e della Magna Grecia, I, Turin-Palerme, 1894.

[19]- J.BELOCH, « Die Phoeniker am aegaeischen Meer », *Rheinisches Museum*, 1894, 111-132.

[20]- S.REINACH « Le mirage oriental», L'Anthroplogie, 1893, pp.539-578 et 699-732.

[21]- V.BERARD, Les Phéniciens et l'Odyssée, Paris, 1902-1903 (تم طبعه من جديد سنة 1927).

[22]- E.DRUMONT, La France juive, Paris, 1886.

[23]- A.MAYR, Die Insel Malta im Altertum, Munich, 1909.

[24]- A.VIVES. y ESCUDERO, Estudios de arqueologia cartaginesa. La necropolis de Ibiza, Madrid, 1917.

[25]- J.WHITKER, Motya. A Phoenician Colony in Sicily, Londre, 1921.

[26]- W.F.ALBRIGHT, "New Light on the Early History of Phoenician Colonisation,", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 83, 1941, pp. 14-22, et The Role of the Canaanites in the History of Civilisation, 1942, republié dans : The Bible and the Ancient Near East. Essays in Honour of W.F.Albright , Garden City, 1961, pp. 328-362.

[27]- S.MAZZARINO, Fra Oriente e Occidente, Florence, 1947, p.259.

[28]- انظر: بالنسبة إلينا يبدأ التاريخ البوني من القرن السادس قبل الميلاد، في ما يخص قاموس المصطلحات الفينيقية

», *Studia Phoenicia*, "phénicien "C.BAURAIN, « Portées chronologique et géographique du terme IV, Namur, 1986, pp.7-28 ; G.BUNNENS, « La distinction entre Phéniciens et Puniques chez les

auteurs classiques », *Atti del I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici*, Rome(1979), 1983, Problème "Néo-punique","Punique","Phénicien"I, pp.233-238 ; M.SZNYCER, « l'emploi des termes. de méthodologie », *Atti del secondo Congresso Internazionale di Linguistica Camito-Semitica, Florence*(1974), 1978, pp.261-268.

هذا العمل هو مشروع ترجمة كتاب" **العالم الفينيقي** " **l'Univers phénicien** لمؤلفيه:

Michel Gras,historien et archéologue, est directeur de l'Ecole française de Rome.
Pierre Rouillard , ancien membre de la Casa Velasquez à Madrid, est directeur de recherche au CNRS.
Javier Teixidor est professeur au Collège de France.
L'univers phénicien, Hachette Littératures, 2007.